

العبادات ودورها في التهذيب



«إنَّ وَاحِدَةً مِنْ مُمْبَزَاتِ الْإِسْلَامِ فِي تَخْطِيطِهِ لِنَظَمِ حِرْكَةِ الْلِّسَانِ وَجَعَلَ لَهَا ضَوْا بِطْ وَحْدَوْدًا، وَلَمْ يَرِخِ الْعَنَانُ لِلْمَرْءِ فِي أَنْ يَطْلُقِ لِسَانَهُ كَيْفَمَا أَحَبَّ وَأَرَادَ، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ مَفَاسِدِ عَلَى الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَا تَحْرِيمُ الْكَذَبِ وَالْبَهْتَانِ وَالْبَسْ وَالْفَحْشَ وَالْقَدْفَ وَالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مَا يَلْهُجُ وَيَتَحْرُكُ بِهِ الْلِّسَانُ، إِلَّا خَيْرٌ شَاهِدٌ عَلَى إِحْسَانِ الْمُشْرِّعِ الْإِسْلَامِيِّ بِخَطْوَرَةِ دُورِ الْلِّسَانِ فِي تَشْوِيهِ وَزَلْزَلَةِ الْعَالَمَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَمْنِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلْأُمَّةِ، وَخَلْقِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجَمِعِ. وَمِنْ هَنَا وَرَدَتْ تَحْذِيرَاتٌ شَدِيدَةٌ لِلْلَّهَجَةِ عَنِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) بِشَأنِ مَا يَلْهُجُ بِهِ الْلِّسَانُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ يُوصِي أَبَا ذَرٍ: "يَا أَبَا ذَرٍ: مَنْ مَلَكَ مَا بَيْنَ فَخْدَيْهِ وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَلْتُ: وَإِنَّا لَنَؤَاخِذُ بِمَا تَنْطَلِقُ بِهِ أَلْسِنَتُنَا؟ قَالَ: وَهُلْ يَكُونُ النَّاسُ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ، إِنَّكَ لَا تَرَالْ سَالِمًا مَا سَكَتَ إِنْذَا تَكَلَّمْتَ كَتَبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ...".

وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع): "كَلَامُكَ مَحْفُوظٌ عَلَيْكَ، فَاجْعَلْهُ فِي مَا يَزْلِفُكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَطْلُقَهُ فِي مَا يُوبِقُكَ". وَقَالَ (ع): "مَنْ قَلَّ كَلَامَهُ قَلَّتْ آثَامُهُ، وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ مَلَامُهُ".

لِينُ الْكَلَامِ عِبَادَةٌ:

لِلْعِبَادَةِ فِي النِّظَرَةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَبْعَادٌ مُتَعَدِّدةٌ، فَهُنَّاكَ الْأَبْعَادُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْأَخْلَاقِيَّةُ وَالْسِّيَاسِيَّةُ وَالْاِقْتِصَادِيَّةُ وَالْمُعْرِفَيَّةُ، فَالْحِجَاجُ مُثُلاً قَدْ جَمَعَ كُلَّ هَذِهِ الْأَبْعَادَ، كَمَا أَشَارَتْ إِلَى ذَلِكَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: (لَيَسْ شَهْدُوا مَذَاجِعَ لَهُمْ) (الْحِجَاجُ 28).

وَمِنْ جَمْلَةِ أَبْعَادِ الْعِبَادَةِ وَمَرَامِيهَا، دُورُهَا فِي تَهْذِيبِ الْخَطَابِ وَصِيَانَةِ الْلِّسَانِ، لَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَيْسَ مُجَرَّدَ طَقْسٍ دِينِيٍّ وَتَقْلِيدٍ جَامِدٍ يَنْتَهِي مَفْعُولَهُ بِأَنْتِهِ الْمَرَاسِمُ الْخَاصَّةُ بِهَا، بَلْ لَهَا اِنْعَكَاسًا عَلَى مَسِيرَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ كُلَّهَا، وَتَأْثِيرًا مُباشِرًا عَلَى كُلِّ تَصْرِفَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، كَمَا إِنَّ نَفْسَ مَفْهُومِ

العبادة في الإسلام لا يتجمد على العبادات الشعائرية المعروفة كما قد يتخيل، وإنما يتسع ليشمل كل عمل من أعمال البر والمعروف، بما في ذلك الخطاب اللين مع الآخر، أو إشاء السلام، أو الإصلاح بين الناس أو نحوه، مما يكون للسان دور فيه، يقول تعالى: (وَوْلُ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَبَعَّهَا أَذَى) (البقرة/ 263)، ويقول علي (ع): "إن من العبادة لين الكلام وإشاء السلام"، وفي وصيته للإمامين الحسينين (عليهما السلام): "أوصيكم جميعاً ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي يتقوى الله ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم، فإنني سمعت حدكم رحمة رسول الله يقول: صلاح ذات البيت أفضل من عامة الصلاة والصلام"، وفي ما يلي، نشير إلى العلاقة الوطيدة بين العبادات الإسلامية وبين الخطاب:

الحج وضبط اللسان:

فلو تأمّلنا في معنى الحجّ ومراحله وما يحرم على الإنسان بعد شروعه فيه من خلال ارتدائه ثوب الإحرام، لأدركنا بوضوح علاقته بالخطاب، ونستطيع القول: إنّ الحجّ يشكّل دورة تدريبية ترمي إلى تحقيق أهداف شتّى، أهمها ما يرتبط بالجانب السلوكى، ويعينينا منها ما له علاقة بالخطاب وضبط حركة الإنسان، حيث نجد أنّ من محرّمات الإحرام الفسوق والجدال، قال تعالى: (فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجَّ) (البقرة/ 197). والمصداق الأبرز للفسوق - كما تنص الروايات - هو الكذب والسباب والمفاخرة، وأمّا الجدال فواضح، ولئن ورد في بعض الروايات أنّه قول "لا واه" و"بل واه" لكن وكما يذكر بعض الفقهاء المعاصرین، بأنّ قول ذلك محرم عندما يكون صادراً في مقام المخاصمة والجدال.

وعلى أيّة حال، فإنّ تحريم الفسوق في الحج واضح المغزى، إلا أنّ تحريم الجدال قد لا يبدو مغزاً واضحاً. إلا أنّنا لو عدنا إلى معنى الجدال وحقيقةه، فقد يرتفع هذا الغموض، لأنّ الجدال كما يقول الراغب الأصفهاني "هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من "جلدت الجبل" أي أحكمت فتلها... فكان المجادلين يقتل كلّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدال وهو الأرض الصلبة". وعليه، فالجدال يحمل بذور الخصم، وهو مدعاه للنزاع، وذلك لا يتناسب مع أجواء الحج الروحية، ولا مع كونه موسم للتلاقي والتقارب والتعارف، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (ع): "إذا أحرمت فعليك بتقوى الله ذكر الله وما لا ينسجم مع روحية المسجد، لأنّه في بيته الله، وعليه أن يتأنّب في محضر الله وبنته. ومن هنا أفتى الفقهاء بكرامة أحاديث اللهو في المسجد وكذا إنشاد الضوال".

الصلة والنهي عن الفحشاء:

والصلة وهي أُم العبادات الإسلامية وعمود الدين، هي الأخرى ذات علاقة وطيدة بالخطاب، ولها دور في تهذيب اللسان وصيانته عن اللغو والفحش، فالملصلي إذا ما افتح الصلة بتکبيرة الإحرام، يلزمها الانشغال بالأذكار والقراءات المحددة واجتناب كلّ أحاديث الدنيا، وعندما يدخل إلى المسجد، فينبغي أن يترك الكلام الذي يلهيه عن ذكر الله وما لا ينسجم مع روحية المسجد، لأنّه في بيته الله، وعليه أن يتأنّب في محضر الله وبنته. ومن هنا أفتى الفقهاء بكرامة أحاديث اللهو في المسجد وكذا إنشاد الضوال.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ أهمّ أثر لابدّ أن تتركه الصلة على سلوك الفرد الملصلي، هو الابتعاد عن الفحشاء والمنكر، وعلى رأس ذلك الكلام البذيء والسوقى، وكذا الكذب والغيبة والنفيمة والسب والشتمة وغيرها من آفات اللسان.

الصوم ليس من الطعام:

وفي شهر الله رمضان، وهو شهر رمضان، يصافع الإسلام من الاهتمام بحركة اللسان وضرورة ضبطه، ويعتبر أنّ الصوم البطن والفرج وهجر الطعام والشراب والعلاقات الجنسية فحسب، بل ينبغي أن يظهر أثر الصوم على اللسان أيضاً، ليدرس الإنسان كلمته قبل أن يطلقها في الهواء الطلق، فإنّ الكلام في وثاق المرأة فإذا

تكلم به صار هو في وثاقه، كما قال عليٰ (ع) ومن هنا، نجد تأكيداً في الأحاديث الشريفة على صوم اللسان، يقول أمير المؤمنين (ع): "صوم القلب خير من صيام اللسان، وصوم اللسان خير من صيام البطن".

وقد قيل إنَّ رسول الله (ص) سمع امرأة تسبُّ جاريتها وهي صائمة، فدعا (ص) ب الطعام وقال لها: كلي، فقالت: إني صائمة فقال: كيف تكونين صائمة، وقد سببت جاريتك؟!! إنَّ الصوم ليس من الطعام والشراب...

وخلاصة القول: إنَّ العبادات الإسلامية تعلّمـنا أن نضبط لسانـنا وندقق في كلـمانـا ونتأدب في أحاديثـنا وحوارـاتـنا لأنَّ من يتأدـب مع الله لا بدَّ أن يتأدـب مع النـّاسـ، وبذلك يكسب ودهـم ويأْمـن شـرـهم، وقد قالـها عليٰ (ع): "من حسنـ كلامـه كانـ النـجـ أـمـامـهـ" و"ربـ لـسانـ آتـىـ عـلـىـ إـنـسـانـ"ـ، و"كمـ منـ دـمـ سـفـكهـ فـمـ"ـ، و"كمـ منـ كـلـمـةـ سـلـبـتـ نـعـمـةـ"ـ.

المصدر: كتاب الإسلام والعنف